العَمَليَّة بروميثيوس

في أُغُسْطُس/ آب ٢٠١٤ جاءتني رِسَالَة مقتضَبة من «مارينا والكر» نائب رئيس الاتحاد الدُوَلي للصحافيين الاستقصائيين تدعوني لإجراء اتصال «آمن» عبر أحد تطبيقات التشفير التي تخفي هوية طرفي الاتصال وتبقيهم في مأمن بعيدًا عن أي جهة تُحاول تعقبهم.

القِصَّة التي روتها كَانَت لتُثير لُعاب أي صحافي، تقول «مارينا»:

«توصلنا إلى عددٍ هائلٍ من الوَثَائِق والحسابات البَنْكِيَّة السريّة لتُجار الألماس والمخدرات وبعض الشخصيات المعروفة التي تَغْسِل أَمْوَالها في جَنَّات النَّعِيم الضَّرِيبي (المْلَاذَات الآمِنَة)، ونُريدك أنْ تنضم إلينا، لديك بعض الوقت لاتخاذ قرارك، وعند ذلك سوف نُطلعك على بقية التفاصيل».

كَانَت تلك هي ركلة البداية فيما عُرف لاحقًا باسم «التَسْرِيبَات السُوِيسْرِيّة» لبنك «HSBC» أو «سويس ليكس».

امتلاك مجموعة من الصَّحفِيّين لهذه الوَثَائِق شديدة السرِّية، اضطرّنا للبحث عن طرق أكثر أمانًا وتعقيدًا للتواصل فيما بيننا ونقل وتبادل المعلومات، ويزداد الأمر صعوبة بعد أنْ عرفنا أنَّ أجهزة استخبارات عديدة تسعى خلف تلك المعلومات، من بينها الاستخبارات الألمانية والأمْرِيكيَّة والإسرائيليَّة.

كَانَت ردود الفعل تتوالى بعد نشر تلك التَّحْقِيقات في منتصف فبراير/

شباط ٢٠١٥ في أكثر من ٧٠ دُوَلة، بطبيعة الحال فإنَّ الاستجابة الرَّسميَّة في أغلب الدُوَل العَرَبيَّة التي كشفنا عن امتلاك حكامها ومَسْؤُولين بارزين فيها أرصدة بَنْكِيَّة سرِّية بها ملايين الدُولاَرات، كَانَت مخيبة للتوقعات، حَتَّى إنَّ الحكومة المِصْرَيَّة التي كَانَت في مرحلة التفاوض مع الحُكُومَات الأوروبية من أجل استعادة جزء يسير من الأُصُول المنهوبة قررت أنْ ترتاد طريق التسويات، ليعيد بعض المُتَورِّطين في قضايا فساد واستغلال نفوذ جزءًا من أَمْوَالهم المعلنة مقابل أنْ تُسقِط الدَّوْلَة التُهَم المُوَجَهَة إليّهم، ويعودوا إلى بلادهم ليواصلوا مسيرتهم كَأَنّ شيئًا لَمْ يكن.

حلّ يوليو/ تموز ٢٠١٥ هادئًا بعض الشيء، كنتُ حينها في عطلة صيفية بجنوب سَيْنَاء، تلقيت آنذاك رِسَالَة مُشابهة للأولى، ولكن هذه المرة من صديق أمريكي يُدعىَ «ويل فيتزغيبون»، لَمْ تحمل الرِسَالَة أية تفاصيل كما هو معتاد، فَقَط بضع كلمات توحي بأَنَّ أمرًا ما يحدث ويجب ألاَّ يفوتني.

قال «ويل» الَّذِي كَانَ حينها مَسْؤُولًا عن التنسيق بَيْن الصَّحفِيّين في منطقة الشَّرْق الأَوسَط وإفريقيا: «نحن الآن بصدد تحقيق آخر كبير ومثير، يتعين علينا ترتيب اتصال آمن».

بالفعل، في منتصف يوم الأربعاء الثَّاني والعشرين من يوليو/ تموز، وفي الثامنة صباحًا بتوقيت واشنطن، كَانَ يجري إطلاع المجموعة الأولى على كُلّ تفاصيل التَّحْقِيق: «بحوزتنا الآن مستندات وعقود بيع وتَأْسِيس شَرِكَات (أوف شور) منتشرة في جميع أنحاء العالم، يصعب حصرها في الوقت الراهن، ستكون تحت تصرفكم وفق بروتوكول آمن وغطاء من السرِّية، على أنْ يتَمَّ إضافة المزيد منها بشَكلٍ تدريجي بعد مراجعتها

وإجراء بعض الاختبارات الخَاصَّة بالتوثيق والتدقيق في محتواها».. مع التأكيد: «لا تتخذ أي خُطُوات أو تتصل بأي شخص، كُلّ ما عليك هو البحث عن الأسماء والشخصيات واختيار قصصك المحتملة».

المُهِمَّة المنوطة بنا آنذاك هي نبش أطنان من المستندات والأوْرَاق والمُرَاسَلات المكتوبة بعدَّة لغات ما بَيْن الإنجليزية والفرنسية والأسبانية والبرتغالية والسُوِيسْرِيّة، بلغت في نِّهَايَة الأمر إلى ٥ , ١١ مليون وَثِيقَة.

كنا كجماعة صيادين تَعْلَموا مرارًا استدراج الأرانب من جحورها في البراري وتَعَقُّبها حَتَّى تسقط تحت أيديهم، غَيْر أنَّ التجربة كشفت غَيْر ذلك، كَانَت الشَّرِكَات السرِّية المملوكة للشيوخ والأمراء والملوك أحيانًا في دُوَل الخليج العَرَبِيّ تتكشف أمامنا تلقائيًا واحدة تلو أخرى. عندما جمعت أسماء أفراد العَائِلَة الحاكمة في السعودية الواردة في كشوف سجلات بنك «HSBC» في جنيف وشَرِكَات «الأوف شور» التي يملكونها في «وَثَائِق بَنَمَا» وجدت أنَّ عددهم تجاوز التسعين بقليل، على رأسهم الملك سلمان، وشقيقه الراحل عبدالله، ونجل الملك فهد.

أكثر ما أرَّقني حينها هو إمكَانِيَّة نشر هذا الكشف في المنطقة العَرَبِيَّة، عندما كنت أنشر تحقيقات «التَسْرِيبَات السُوِيسْرِيّة» عام ٢٠١٣، وكشفنا خلالها عن امتلاك ملوك المغرب والأردن وسلطنة عمان وأمراء الكويت والإمارات والسعودية لأرصدة كبيرة داخل البنك السُوِيسْرِيّ، واجهت ضغوطًا لعدم نشر ما يخص الكويت والإمارات والسعودية على وجّه التحديد داخل مصر، الحجة كَانَت أنَّ الدُوَل الثلاث تُقدّم معونات ومنحًا بالمليارات للحكومة المِصْرَيَّة آنذاك، ومِنْ ثَمَّ فإنَّ نشر أي منها في الصحافة المِصْرَيَّة ربما يسبب توترًا في العلاقات بَيْن تلك البلدان ومصر.

لدينا هنا قاعدة صحفية نستند إليها: «لا توجد قِصَّة تستحق أنْ تُغامر بحياتك أو بأمنك الشخصي من أجلها»، أؤمن إلى حد كبير بهذه القاعدة، وفي نفس الوقت لا يمكنني التخلي عن تلك القِصَّة بسهولة، اتفقنا ساعتها أنْ أُمُدَّ زملائي في الفريق الكبير للاتحاد الدُوَلي بكل المعلومات التي جمعتها، على أنْ يتَمَّ نشرها لاحقًا في مطبوعات أجنبية.

بمرور الوقت تتكشف الأسماء أكثر داخل وَثَائِق بَنَمَا، رئيس دَوْلَة الإمارات، أمراء بارزون، شيوخ الكويت، رئيس برلمانها السابق، الأسرة الحاكمة في قطر، أقرباء بشار الأسد، رؤساء حكومات ووزراء سابقون في العراق والأردن، أبناء حكام مصر، أصدقاؤهم، أصهارهم، كبار رِجَال الأَعْمَال الَّذِين يحتلون مراتب متقدمة سنويًا في تقديرات مجلة «فوربس»، رؤساء شَرِكَات هواتف محمولة، مُلاك مُؤَسَّسَات إعلامية، رؤساء أندية رياضية، رِجَال دين... تلك القوائم كفيلة بأن تجعلك ممنوعًا «كَرهًا» من دخول أغلب الدُوَل العَرَبِيَّة، وتمنعك كذلك أنْ تُطلَّ برأسِك مِن شُرفَة بيتك مَا لَمْ تكن خُطْوَاتك محسوبة بدقة.

يقترب أُغُسْطُس/ آب من نهايته، أَتَلَقّى رِسَالَة مُشفّرة لاجتماع عاجل في مِيُونخ في غُضُون أسبوعين؛ للتنسيق لتلك العَمَلِيَّة التي اختير لها اسم «بروميثيوس».

تصف الأساطير اليونانية «بروميثيوس»، أحد حكماء التايتن، ببُعد النظر والقدرة على التنبؤ بالمستقبل. اختاره «جوبيتر» مُستشارًا له، وبمرور الزمن نشب خلاف بينهما بسبب البشر، كانُوا مخلوقات ضعيفة، وكَانَ عليهم أنْ يحاربوا ضد تغيُّرات الطقس في الوقت الَّذِي تحيط بهم الوحوش الضارية، وبدا أنَّ الجنس البشري سيهلك سريعًا مَا لم يتلقَّ دَعْمًا من الآلهة.

رفض «جوبيتر» أنْ يمنح البشر النار، فكَانَ الفراق بينه وبين «بروميثيوس» الَّذِي ترك جبال الأوليمب، وقرّر العيش وسط البشر، قَدَّم لهم النار هدية، علَّمَهم استخدامها فى صناعة الأسلحة، والأدوات المناسبة لكل المهن ومحاربة أعدائهم.

بفضل مُروءة «بروميثيوس» وتحمُّله لعقاب «جوبيتر» القاسي، عرف البشر الحضارة، وتمكنوا من ترويض الحيوانات، وتقدموا فى الصناعة والزراعة.

إخفاء هذا الاجتماع عن الأعين أمر ليس سهلًا، تكفَّلت الصحيفة الألمانية والاتحاد الدُوَلِي بإيجاد الغطاء المناسب، فيما تولى الصَّحفِيّون المشاركون بقية المَسْؤُولية بشَكلٍ فردي، اتفقنا عليه مسبقًا.

القطار المنطلق من مطار ميونخ إلى حي «داج ليفينج» قطع المسافة في نصف ساعة تقريبًا، في محطة الوصول التقيت صديقة من سراييفو، لَمْ تكن شاركت معنا في تحقيق «التَسْرِيبَات السُوِيسْرِيّة»، كَانَ كُلّ منا قادرًا على تخمين سبب وجود الآخر في هذا المكان وهذا التوقيت بالتحديد، كلانا يعرف أنَّها ليست صدفة، كثيرًا ما التقينا في مؤتمرات للصحافة الاستقصائِيَّة ما بَيْن النرويج والسويد وسُوِيسْرا والبرازيل وأوكرانيا، لكن لا يوجد ما يبرر هذا التواجد الآن سوى أنَّها «مُهِمَّة صحفية ما»، كلٌّ منا كَانَ يتحاشى التطرق لأسباب الزيارة، وكلٌ منا أيضًا يتفهم ذلك، كَانَ ثَمَّة صمت اختياري التزمنا به حَتَّى وصل كُلّ منا إلى وجْهته.

في صبيحة اليوم التالي الثلاثاء الثامن من سبتمبر/ أيلول ٢٠١٥ كُنَّا هناك، مائة صحافي تَمَّ اختيارهم بعناية فائقة، يلتقون في قاعة اجتماعات

بالطابق السادس والعشرين، هم رؤساء المجموعات الصَّحفِيّة التي ستشارك في هذا التَّحْقِيق، لديهم جميعًا دراية عالية بتقنيات تَعَقُّب غَسْل الأَمْوَال والجرائم المَاليَّة المُنَظَّمة، واستخدام التكنولوجيا الحديثة والتخفي عن أعين المتلصصين إلكترونيًا، والتعامل مع قَوَاعِد البَيَانَات الخَاصَّة بالمُؤَسَّسَات المَاليَّة. بعد يومين سوف يعودون إلى أوطانهم ليشكِّل كُلّ منهم فريقه الخاص، أو يعمل منفردًا كما هو الحال معي.

كَانَت ميونخ هي الخيار الأَمْثَل، الطقس في عاصمة إقليم بافاريا في هذا التوقيت يزرع في النفس غموضًا إضافيًا يليق بالحدث، السماء تزدحم بغيوم تأتي من قبالة جبال الألب، تسمح على استحياء للشمس أنْ تتسلل من النوافذ، رياح «الفون» الدافئة لَمْ تُفلح هذه المرة في كبح الصقيع ولو لساعات قليلة، درجة الحرارة في الخارج تقترب من الصفر، وفي الداخل يجري الإعداد لأكبر تحقيق في تاريخ الصحافة في العالم.

ها نحن الآن مجتمعون داخل المبنى الشاهق للصحيفة الألمانية، بيننا رئيسة تحرير «الغارديان» كاثرين فينر تقود فريقًا من المحققين، ورئيس تحرير «زود دويتشي تسايتونغ»، وفريق عمل «بِي بِي سِي»، وتليفزيون «آيه بي سي» الأسترالي، وتليفزيون «إس فِي تِي» السويدي، وصحيفتَي «لُومُوند» و«لُوسوَار» الفرنسيتين، و«آفتِن بُوستِن» النرويجية، وممثلو كبرى المُؤَسَّسَات الصَّحفِيّة في سُوِيسْرا، وإسبانيا، وإيطاليا، وأوروغواي، والمكسيك، والصين، والهند، واليابان، وجنوب إفريقيا، ومن الشَّرْق الأَوسَط كنت أنا وصديقي السُورِيّ حمود المحمود.

أمَّا لمعرفة كيفية اختيار الصَّحفِيّين والبلدان المشاركة في التَّحْقِيق[1] فسوف أُحِيلك إلى «ويل فيتزغيبون»، المَسْؤُول عن التنسيق والاتصال مع محرري الشَّرْق الأَوسَط وإفريقيا داخل الاتحاد الدُوَلي للصحافيين الاستقصائيين:

«في كُلّ مشروع جديد نسعى إلى إيجاد توازن في التعاون مع الصَّحفِيّين ذوي الخبرة والموثوق بهم، والَّذِين عملنا معهم من قبل، ولديهم مهارات تتناسب مع احتياجات التَّحْقِيق، كما نسعى كذلك للتعاون مع صَحَفِيين من البلدان التي لَمْ يسبق لها التعاون معنا».

«لم نكن نضم فَقَط الصَّحفِيّين المتميزين مِهْنِيًّا، ولكنْ أخلاَقيًّا أيضًا»، يقول «فيتزغيبون»: «لعل أهم سمات الاختيار في مشروع «وَثَائِق بَنَمَا» هو أنْ يكون للصحافيين المشاركين معنا الرغبة في مشاركة وتبادل كُلّ ما يعثرون عليه داخل قَوَاعِد البَيَانَات، ربما كَانَ ذلك السبب في جَعَله أكبر تعاون صحفي عابر للحدود في التاريخ».

ثَمَّة أهمية أخرى للقاء ميونخ بِحَسْب «فيتزغيبون»: «عندما تعمل على مشروع في غاية السرِّية طيلة ما يزيد على العام، وتكون غَيْر قادر على إطلاع أي شخص أو مؤسسة بماهية عملك، فإنَّ التواصل مع أصدقائك الَّذِين يعملون معك على نفس المشروع سيكون مريحًا لك ولهم، فَقَط هؤلاء الأشخاص الَّذِين تستطيع أنْ تناقش معهم بأريحية جميع

(١) في منتصف عام ٢٠١٧ أُسِّسَت أوَّل لجنة داخل الاتحاد الدولي للصحافيين الاستقصائيين، لتكون معنيَّة بوضع آلية للانضمام إلى الاتحاد، والنظر في عضوية الأعضاء الحاليين والمحتملين.

في السابق كان الانضمام قائمًا على انتقاء الصحافيين المُميزين في بلدانهم، ودعوتهم للالتحاق بالفريق الكبير، وبمرور الوقت اتسعت الدائرة، وكان من الضروري وضع آلية تنظيمية لإضافة أعضاء جدد أو استبعاد آخرين. اللجنة شُكِّلت من ٩ أعضاء من قارات العالم، وتم اختياري ممثلًا عن منطقة الشرق الأوسط وإفريقيا.

التفاصيل دون خوف».

بدأ الاجتماع التحضيري برواية القِصَّة التي جئنا كصحافيين من كُلّ أنحاء العالم إلى ميونخ كي نعرفها ونطلع على تفاصيلها، ومِنْ ثَمَّ نواصل العمل فيها. لا يُمكِنْ إغفال هذه الأسئلة، كيف وصل هذا الكم الهائل من الوَثَائِق إلى صحيفة «زود دويتشي تسايتونغ»؟ كيف يمكننا التوثق من صحة ما جاء فيها؟ ما احتمَاليَّة أنْ تكون مدسوسة علينا للتشكيك في مصداقيتنا؟ الأسماء التي وضعناها على الطاولة بعد بحث سريع لعدَّة أسابيع كفيلة بإشعال ثورات وإقالة حكام والتنكيل بمشاهير السينما والرياضة.

يتصدر صالة الاجتماعات «باستيان أوبرماير» و«فريدريك أوبرماير»، ليسا شقيقين، ولكنّ ما يجمعهما أكبر بكثير من رابطة الدم، اعتدنا أنْ نداعبهما بـ«الإخوة أوبرماير».

يروى «باستيان» القِصَّة: «فى بداية ٢٠١٥ تلقيت رِسَالَة على هاتفى المحمول من شخص مجهول سمى نفسه «جون دو»، اسم يشيع استخدامه فى الوِلاَيَات المُتَّحِدَة وكندا من قبل الأشخاص الَّذِين يتَعَمَّدون إخفاء هُوِيَّاتهم، وأحيانًا تقيد المستشفيات ضحاياها الَّذِين لا يُستدل على هُوِيَّاتهم فى سجلاتها بهذا الاسم، عرض هذا الشخص مشاركة بعض البَيَانَات معي، لَمْ أمانع طبعًا، وإن كنت أتشكك كما جرت العادة فى نواياه».

«قبل أنْ أغوص فى تفاصيل ما بحوزته، أراد هذا الشخص أنْ يؤكد لى أمرين، الأوَّل أنَّ تلك البَيَانَات فى غاية السريَّة والخطورة، ولا شك أنَّ حياته معرضة للخطر إذا ما تَمَّ التعرف على هويته، الأمر الثَّانى أنَّه قضى أسابيع طويلة يدرس كيفية

التعامل مع بيَانَات بتلك الخطورة، لذلك سوف يكون التواصل بيننا فَقَط من خلال قنوات آمنة ومشفَّرة».

يصعب جِدًا على صحافي يدفعه دائمًا الفضول نحو الحقيقة، والنبش عن المطموس عمدًا أو سهوًا، أنْ يتجاهل رِسَالَة بتلك الصيغة، كثيرًا ما نتَلَقّى رسائل مشابهة في غرف الأخبار حول العالم، لكن من يملك القدرة على إغفال إخبارية كهذه، لَمْ يكن «باستيان» أو أي منَّا يتصور حينها أنَّ «جون دو» سوف يُلقي تحت أقدامنا بأدلَّة إدانة استطاعت أن تُطِيح برؤساء وزراء، وتجبر آخرين على قضاء ساعات قاسية يحاولون تبرير مَصَادِر أَمْوَالهم للسُّلُطات وللجمهور.

لم يطلب هذا المصدر أي أَمْوَال لقاء تَقْديم هذه المعلومات، لَمْ يتدخل كذلك في فرض قصص بعينها، ترك لنا الأمر برمته، في غُضُون أيام تَلَقّى «باستيان» الدفعة الأولى، كَانَت عِبَارَة عَنْ عدد ضخم من ملفّات «PDF» تَضُمّ أوراق تَأْسِيس شَرِكَات وعقود بيع ومعلومات تفصيلية عن تلك الشَّرِكَات، بدأ «باستيان» أولًا في تحليل هذه الوَثَائِق واحدة بواحدة، بدأت الخيوط تتكشف حينها، هذه الحزمة من الوَثَائِق تتعلق بالأرجنتين، النائب العام هناك لديه شكوك حول تورط مجموعة من رِجَال الأَعْمَال في مساعدة رئيسة الأرجنتين «كريستينا كيرشنر» وزوجّها «نيستور» في تهريب ٦٥ مليون دُولاَر إلى خارج البلاد.

جرت تلك العَمَليَّة بشَكلٍ بالغ التعقيد ومن خلال ١٢٣ شَرِكَة وَرقِيَّة[٢] أُسست جميعها في ولاية نيفادا إحدى «المْلاَذَات الآمِنَة»

(٢) هي مُجَرَّد شَرِكَات لها سجل تجاري وليس لديها أي أنشطة أو مكاتب ويُدِيرها موظفون وهميّون.

بالوِلاَيَات الْمُتَّحِدَة، بواسطة شَرِكَة بنمية للمساعدات الْقَانُونية اسمها «مُوسَاك فُونْسِيكَا».

يروي «باستيان»: «كَانَت كُلّ الوَثَائِق تنتهي بي إلى الشَّرِكَة الْبَنَمِيَّة ذاتها، هي عامل مشترك في كُلّ شيء، بدا أنَّها هي مِفْتَاح اللُّغْز، الأوْرَاق التي تلقيتها جميعًا كَانَت سليمة مائة بالمائة».

لا يعنى هذا أنَّ كُلّ عُمَلاَء تلك الشَّرِكَة متَوَرّطون فى أفعال غَيْر قانونية، البحث الظاهرى حول تلك الشَّرِكَة يشير إلى علاقات مزعومة بيْن «مُوسَاك فُونْسِيكَا» وبين الرئيس الليبى معمر القَذَّافِيّ، والسُورِيّ بشار الأسد، والزيمبابوى «روبرت موغابي»، وادّعاءات حول مساعدتها إياهم فى إخفاء وتهريب ملايين الدُولاَرات، ومساعدة آخرين فى تأْسِيس شَرِكَات «أوف شور» بشكلٍ قانونى استغلوها هم فى غَسَل أَمْوَال تحصلوا عليها من الاتجار فى البشر والألماس ونهب ثروات بلدانهم، غَيْر أنَّنَا فى عملنا الاستقصائى لا نستند أبدًا إلى ادّعاءات، فكَانَ المبدأ الَّذِى تعاملنا به أنَّ الكل مُشتبه به حَتَّى يثبت العكس، والكل بريء ما لم نملك دليل إدانة دامغ نقدّمه للسُّلُطَات، أمَّا حق التصرف واتخاذ رد فعل رسمي، فهى مَسْؤُولية البرلمانات التى تحاسب، والرأى العام الَّذِى يدافع عن حقه، والحكُومَات التى تعاقب الجناة أو تغضّ النظر.

عاد «جون دو» ليُقَدِّم الدفعة الثَّانية، كَانَت مثيرة أيضًا، وجود شخصيات بارزة في روسيا وألمانيا يعني أنَّ الدائرة تتسع أكثر، لكن ثَمَّة اسم كَانَ بداية خيط رائع لِقِصَّة استثنائِيَّة، في نوفمبر/ تشرين الثَّاني ٢٠١٣ جرى إيداع ما يزيد على ٣٧٥ أوقية من الذهب ما قيمته ٤٨٠ مليون دُولاَر في أحد فروع بنك «سوسيتيه جنرال» الفرنسي بجُزُر البهاما، تعود مِلْكِيَّة هذا الحساب لشخص يُدعى «هانس خواشيم كولسدورف»، ليست هذه هي القِصَّة، فالرجل الألماني ذو السبعة والخمسين عامًا شغل

obeikan.com

لعدَّة عقود مناصب قِيَاديَّة داخل شَركَة «سيمنز»، وهو ما جَعَله متهمًا في وقت سابق بإدارة عدد من الصَنَادِيق المشبوهة لشَركَات محلية في أمريكا اللاتينية تابعة لشَركَة «سيمنز» في الفترة ما بين ٢٠٠٧ و٢٠٠٨، أثناء مثوله للتحقيق في ميونخ اعترف «كولسدورف» بإدارة تلك الصَنَادِيق، إلا أنَّه لَمْ تتَمّ إدانته لعدم ثبوت تقديمه رَشَاوَى، ومِنْ ثَمَّ أغلقت السُّلُطَات الألمانية التَّحْقِيقات، وانتهت الْقَضِيَّة في ٢٠١٢ بتغريمه ٤٠ ألف يورو.

كَانَ السؤال المُلحُّ هو كيف تحصّل «كولسدورف» على هذه الأَمْوَال؟ ومن الَّذِي قام بإيداع تلك الثَّرْوَة الضخمة في حسابه؟ ولأجل ماذا؟ لتتضح الصورة أكثر، علينا أنْ نعرف أنَّ المئات من المُدِيرين التنفيذيين لشَركَة «سيمنز» خضعوا للتحقيق لعدَّة سنَوَات في ألمانيا بعدما ثبت امتلاكهم شبكة عنقودية بالغة السرِّية من الحسابات البَنْكِيَّة حول العالم يستخدمونها في تقديم رَشَاوَى لسياسيين وأشخاص نافذين ومُسْتَثْمِرين، كَانَت فضيحة مدوية اعتبرت آنذاك أكبر عَمَليَّة لتقديم الرَشَاوَى في ألمانيا، الإطاحة بالعشرات من كبار المَسْؤُولين في «سيمنز» لَمْ تُطفئ النار التي ظلت مُتقدة تحت الرماد، قِصَّة «كولسدورف» سوف أرويها لاحقًا.

في حزمة الملفّات التي تخص روسيا، ظهرت عِدَّة شَركَات وَرقِيَّة، ترجع مِلْكِيَّة أغلبها إلى «سيرغي رولدغين»، عازف تشيلو روسي، وصديق مُقرب من الرئيس الروسي فلاديمير بوتين.

الأَوْرَاق التي تخص «رولدغين» كَانَت عِبَارَة عَنْ عقود واتفاقيات لامتلاك أسهم تتراوح قيمتها ما بَيْن ٨ ملايين دُولاَر وحَتَّى ٢٠٠ مليون دُولاَر، ثم ظهرت وَثِيقَة أخرى تُشِيرُ إلى أَنَّنَا بصدد قِصَّة قوية، أحَد التعاملات السرِّية التي أجراها صديق «بوتين» من خلال شَركَات

مُسَجَّلة في الخارج بلغت قيمته ٨٥٠ مليون دُولاَر أمريكي، إجراء تَعَاقُدات غَيْر معلنة بتلك الطريقة، ومن خلال شَرِكَة «مُوسَاك فُونْسِيكَا» أمر أثار شكوك كثيرة لدينا، ليس فَقَط تجاه «سيرغي رولدغين»، وإنما تجاه «بوتين» نفسه.

ظل المصدر السري «جون دو» يتواصل مع «باستيان» لعدَّة أشهر، كَانَت الملفّات التي يُقدِّمها لنا أكبر بكثير مما نتخيل. بِحَسْب «باستيان»، طلب «جون دو» أنْ تنشر هذه الملفّات في مُؤَسَّسَات صحافية كبرى في أمريكا وبرِيطانِيا، وسمى تحديدًا صحيفة «نيويورك تايمز»، لَمْ تكن قد انضمّت حينها إلى الاتحاد الدُوَلي للصحافيين الاستقصائيين، في بداية تكوين الاتحاد دُعيت الصحيفة الأَمْرِيكيَّة إلى الانضمام، وبحساباتها الخَاصَّة، رفض القائمون عليها هذا العرض، أذكر أنَّ الرِسَالَة التي أرسلوها كَانَ مضمونها: «إذا كَانَ لديكم تَسْرِيبَات أو معلومات شديدة الأهمية فسوف نقوم نحن بنشرها أولًا، ثم تنشر من بعدنا أو تنقل عنّا بقية الصحف، وإذا كُنَّا نملك نحن هذه البَيَانَات، فلماذا علينا أنْ نُشاركها معكم؟»، غَيْر أنَّه وبعد نشر سلسلة تحقيقات «وَثَائِق بَنَمَا» بمشاركة ٤٠٠ صحافي من ٨٠ دَوْلَة وفي توقيتٍ واحد، من بينهم أكبر المُؤَسَّسَات الصَّحفِيّة في القارات الست، طلبت «نيويورك تايمز» أنْ تنضم لنا، وكَانَ لها ذلك بعدما تيقنت من جدوى هذا التحالف غَيْر المسبوق من التعاون الصَّحفِيّ العابر للحدود، والَّذِي استطاع الحفاظ على سرِّية هذه التَسْرِيبَات طيلة ما يزيد على عام.

ثَمَّة سبب ثالث إلى جانب عدد الصَّحفِيّين والبلدان المشاركة جَعَل من هذا التَّحْقِيق هو الأكبر في تاريخ الصحافة.. ألا وهو حجم الوَثَائِق التي باتت بحوزتنا.

فى عام ٢٠١٥ بلغت كمية التَسَرِيبَات التى تحصلنا عليها من داخل بنك «HSBC» نحو ٣,٣ جيجابايت، وفى عام ٢٠١٤ بلغت تَسَرِيبَات لوكسمبورغ ٤ جيجابايت، وفى ٢٠١٣ كَانَت تَسَرِيبَات «الأوف شور» ٢٦٠ جيجابايت، أمَّا تَسَرِيبَات «ويكيليس» التى انطلقت فى ٢٠١٠ فكَانَت ١,٧ جيجا بايت، فى حين كَانَت الملفّات المسربة إلينا من داخل هذه الشَّرِكَة الْبَنَمِيَّة وحدها ٢,٤ تيرابايت، تنقل لنا معلومات عن ٢١٤ ألف شَرِكَة تأسست منذ سبعينيات من القرن الماضى وحتَّى نهَايَة عام ٢٠١٥، ومن داخلها كلّ التحويلات البَنْكِيَّة والتعاملات التى أجراها ١٤ ألف عميل لشَرِكَة «مُوسَاك فُونْسِيكَا».

بمرورِ الوقت باتت الخيوط تتكشَّف أكثَر، قوائم الدَّوْلَة التي تطالها التَسْرِيبَات طويلة جدًا، التَسْرِيبَات نفسها تزداد يومًا بعد الآخر، قررت صحيفة «زود دويتشي تسايتونغ» أنْ تُشرك الاتحاد الدُوَلي للصحافيين الاستقصائيين، ومِن هنا كَانَت البداية الحَقِيقِيَّة.

التَسْرِيبَات ضمّت الملفّات الداخلية لشَرِكَة «مُوسَاك فُونْسِيكَا» في أكثر من ٣٨ مكتبًا ما بَيْن ميامي وزيورخ وهونغ كونغ ودبي.

هذه الشَّرِكَة الْبَنَمِيَّة هي إحدى أكبر الشَّرِكَات التي تعمل في تَأْسِيس شَرِكَات مُسَجَّلة في الخارج، والتي تستخدم أحيانًا في إخفاء مِلْكِيَّة الأُصُول عن الأعين، تحتوى التَسْرِيبَات على جوازات سفر وتقارير مَالِيَّة وعقود شَرِكَات تكشف هوية أَصْحَاب حسابات بَنْكِيَّة سرِّية في ٢١ سجلًا تجاريًا حول العالم يسمحون بتَأْسِيس هذا النوع من الشَّرِكَات؛ من بينها نِيفادا الأمْرِيكِيَّة وسِنْغَافُوره وجُزُر الْعَذْرَاء البِريطانِيَّة.

قَدَّمَت تلك الشَّرِكَة خدماتها أيضًا لكل من ملكي المغرب والسعودية

مُحَمَّد السادس وسَلْمَان بن عبدالعزيز في شراء يُخُوت فارهة، كما كشفت الملفّات الخَاصَّة بأيسلندا عن امتلاك رئيس الوزراء «سِيْغمُوندر دَافِيد غُونلُوغسُون» وزوجته شَرِكَة «أوف شُور» بشَكلٍ سِرِّيّ أخفيا من خلالها ملايين الدُولاَرات على هيئة سندات بَنْكِيَّة، في الوقت الَّذِي كَانَت تمر فيه البلاد بأزمة اقتصادية طاحنة، لاحقًا ستجبره تلك الفضيحة على الاستقالة.

من بَيْن تلك الملفّات عثرنا على وَثِيقَة لأحد المُتَوَرِّطين في جرائم غَسْل الأَمْوَال، زعم فيها قيامه بتنسيق حملة جمع تبرعات غَيْر مشروعة بقيمة ٥٠ ألف دُولاَر لُتدفع إلى مُسربي «فضيحة ووترغيت».

اتفقنا في ميونخ على موعد محدد للنشر في جميع دُوَل العالم، وفي نفس الساعة تقريبًا، لكن تَمَّ تعديل الموعد مرتين، اختبار الالتزام بالسرِّية والخطط المعدة مسبقًا، وكَانَت النتيجة مبهرة وصادقة، وكَانَ الموعد النهائي هو أنْ يبدأ النشر في الساعة السادسة مساء الثَّالث من أَبْرِيل/ نَيْسَان ٢٠١٦ بتوقيت القاهرة، الثَّانية عشرة في منتصف الليل بتوقيت واشنطن، كَانَت كُلُّ الخُطُوات محسوبة بدقة متناهية مسبقًا، ثَمَّة موعد محدد لمخاطبة الأشخاص الَّذِين نتناولهم في قصصنا الصَّحفِيّة ومنحهم حق الردّ، وبعد ذلك نذهب إلى الشَّرِكَة الْبَنَمِيَّة؛ لمواجهتها بما حَصُلنا عليه، كَانَ من الضروري أنْ نحافظ على عنصر المفاجأة، وأن نضرب بشَكلٍ جماعي ومتزامن؛ حَتَّى يصعب عرقلة ما نقوم به.

في هذا الاجتماع تحولنا إلى عِدَّة فرق حسب وسيلة النشر، انضممت بدوري إلى فريق التليفزيون، لا أعتقد أنني شاهدت تعاوناً صحفيًا بهذا الشكل الدقيق والمتناسق من قبل.

صرنا ننسق كلّ شيء دون أنْ نترك شيئًا للظروف، نوع الكاميرات، والعدسات المُستَخْدَمَة، حجم الإطارات، زوايا التصوير، الإضاءة، مَنْ سيكون أمام الكاميرا ومن لا، ثم كانَت العقبة الأكبر، كيف سيتمّ مشاركة هذه المواد التليفزيونية فائقة الجودة بيننا وبشكلٍ سرّي؟

تنحى «جواشيم» و«فريدريك لورين» من التلفزيون السويدي جانبًا، ثم أجريا اتصالًا برئيس فريق التَّحْقِيقات «نيلز هانسن»، كنتُ قد تعاونت مع «فريدريك» و«نيلز» في عِدَّة تَحْقِيقات سابقة، في غُضُون دقائق جَاءَنا الحل، وحدة التَّحْقِيقات في التلفزيون السُويدي سوف تتكَفَّل بحل المُشكلة. تَمَّ الاتفاق على الحُصُول على «سِيْرفَر» في مكَانٍ آمن في سيبيريا تُرسل إليه كُلّ المواد وفق بِروتُوكُول غاية في التَعْقِيد والسِّرِيَّة، وبعدها يُمْكِنَنَا الحُصُول عليها وتبادلها.

اتفقنا كذلك على تنسيق الأدوار، انطلق فريق منا إلى جُزُر الْعَذْرَاء البِريطانِيَّة، وفريق ثان إلى بَنَمَا، وثالث إلى مورشيوس، ورابع إلى البرازيل، وخامس إلى نييوي، كَانَت مُهِمَّة فريق بَنَمَا هي الأكثر حساسية وصعوبة، المُهِمَّة تقتضي بأنْ يُصَوِروا مكاتب شَرِكَة «مُوسَاك فُونْسِيكَا»، ويُجروا لقاءات مع ممثلي الشَّرِكَة، لذلك اخترنا توقيتًا متزامنًا مع أحد المهرجانات الداخلية التي يتوافد خلالها صحافيون أجانب لتغطية هذا الحدث، منسقون لنا هناك رتبوا الإقامة والانتقالات باعتبارنا طاقم تصوير سينمائي.

طيلة عام كامل، كَانَ كلٌّ منا يشارك ضمن أكثر من فريق حسب اهتماماته، تطلب من صحافيين سُوِيسْرِيّين أنْ ينسقوا لك مقابلات مع مَسْؤُولين معنيين في قصتك، ويطلب منك صحافي هندي أوراقًا عن

مُسْتَثْمِر أو مَسْؤُول بارز له استثمارات في بلدك، وتطلب من ثالث أنْ يتوثق لك من عنوان سجّله أحد المتهمين باعتباره محل إقامته، وتطلب من رابع أنْ يقوم بترجمة بعض الوَثَائِق لك من لغته الأم إلى لغة مشتركة، كُلّ هذا كَانَ يتَمّ ويجرى تبادله وتنفيذه دون أنْ تُسرَّب معلومة واحدة تقضي على مجهودات فريق كامل.

في أعقاب النشر توالت ردود الفعل، ما بَيْن مُنكر ومكذّبٍ ومهوّنٍ ومُشكّك، لماذا هذا التوقيت، ولماذا هؤلاء الأشخاص، من هو المصدر الَّذِي سرّب لكم هذه المعلومات؟ من أنتم من الأساس؟ ومن يموّلكم؟ من يقف خلفكم؟ كيف لنا أنْ نثق في صحة هذه الوَثَائِق؟ وهل هي فعلًا وَثَائِق أم مُجَرَّد أوراق عادية؟

لكن السؤال الأهم كَانَ عن هوية صاحب التَسْرِيبَات، أو من نُسميهم في لغتنا الصَّحفِيّة «**whistleblowers**» أو «نافخي صفارة الإنذار»، لذلك أرسل حينها «جون دو» رِسَالَة إلى صحيفة «زود دويتشي تسايتونغ»، محاولًا الإجابة عن بعض من تلك الأسئلة والكشف عن دوافعه التي جَعَلته يُقدم تلك المعلومات للصحافة، خَاصَّة وأن مُسربين آخرين تحصّلوا على أجزاء من بَيَانَات شَرِكَة «مُوسَاك فُونْسِيكَا»، غَيْر أَنَّهُم قرروا بيعها للسُّلُطَات، فيما اختار «جُون دُو» أنْ يضعها كاملة تحت أيدي الصحافة والجمهور.